أنّا مارى شيمل
أعظم من أنصف الإسلام

أنّا مارى شـيمل، أعظم المستشـرقين الذين أنصفوا الإسـلام، ودرسـوه بموضوعية ودون انحياز ضده.

كانـت تربطنى بها علاقـة روحية، بدأت مع أول لقاء معها، فى باكسـتان، وكنت فى صحبة الإمام الأكبر الدكتور محمد سـيد طنطاوى شـيخ الأزهر، وهناك علمت بوجودها فسـعيت إلى الاتصال بها لتحيتها، فسـألتنى إن كان من الممكن أن تلتقى بشـيخ الأزهر لأنها معجبة بآرائه السمحة المعتدلة، والتقينا ودار حوار طويل حول الحرية الدينية فى الإسلام، وسماحة الإسلام مع أصحاب الديانات الأخرى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ و﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾.. وامتد الحديـث إلى مكانة المـرأة فى الإسـلام، والاتهامات الظالمة للإسـلام بأنه يظلم المـرأة، ويعادى الديمقراطية وحقوق الإنسان.. إلى آخر هذه الاتهامات التى تتردد بين المستشرقين والسياسيين.

وأذكر أنى سألتها: هل وجدت فى دراساتك للإسلام أنه دين يدعو إلى الإرهاب؟..

ولن أنسـى منظرها وهى تسـتمع إلى سـؤالى، وقد انتفضت من مقعدها وقالـت باللغة العربية وبصوت عال: معاذ الله!

وشعرت بعد هذه المقابلة أن هذه الأستاذة العظيمة تستحق الاحترام.

بعـد ذلك ذهبت فى رحلة إلى ألمانيا بصحبة الإمـام الأكبر أيضا، وكان برنامجه يتضمن حضور لقاء فى المركز الإسـلامى فى بون وكانت هى عاصمة ألمانيا قبل أن تنتقل العاصمة إلى برلين - و فى هذا اللقاء فوجئت بحضور الدكتورة أنّا مارى شيمل، وقالت: إنها جاءت سيرا على الأقدام لأنها لم تجد سـيارة أو (تاكسـى) و خشيت أن تتأخر عن الموعد، وبعد أن ألقى شيخ الأزهر حديثه، جلسنا معـا فى صالون ودار حوار شـائق حول دراسـاتها عن التصوف وعن المدارس الفقهية الإسـلامية، وقالـت: إنها عائدة لتوها من إيران، حيث دعيت لإلقـاء محاضرات فى الجامعة فى طهران وأنها كانت أيضا فى باكستان وتركيا لإلقاء سلسلة محاضرات عن الإسلام.

وحين عدنا إلى القاهرة اتصلت بالدكتور محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف واقترحت عليه أن يدعوها لزيارة القاهرة والالتقاء بأساتذة الأزهر ومفكرين إسلاميين فى مصر، فقال لى: إنه يعرفها جيدا، ويعرف مكانتها العلمية، وهى صاحبة مدرسة فى الاستشراق ولها تلاميذ كثيرون هم الآن من كبار أساتذة الدراسات الإسلامية فى الجامعات الألمانية، وقال: إنه سيدعوها لحضور مؤتمر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وحضرت فعلا إلى القاهرة ولقيت التكريم من شيخ الأزهر ومن وزير الأوقاف وهو أصلا أستاذ للفلسفة الإسلامية، وحصل على الدكتوراه من ألمانيا، ويجيد اللغة الألمانية، ومعروف جيدا فى الأوساط العلمية هناك، وكانت هذه الزيارة فرصة لأدعوها للالتقاء بمجموعة كبيرة من الصحفيين والكتّاب من مجلة (أكتوبر) وقضينا سهرة طويلة فى حوار ممتع نشرنا ملخصه فى مجلة (أكتوبر)..

وامتدت صداقتنا، والتقينا مرة أخرى فى زيارة ثانية لها للقاهرة، وكنت على موعد للقائها فى ألمانيا فى صيف ٢٠٠٤، ولكن الله لم يشأ أن يتحقق ذلك.

❑❑❑

ومن حسن حظى أنى وجدت الباحث المصرى الدكتور ثابت عيد فى جامعة زيورخ فى سويسرا وثيق الصلة بالدكتورة أنّا مارى شيمل، وتفضل بإرسال مجموعة من دراساته عنها وترجماته لأعمالها إلىّ فكان ذلك جميلا منه لأنى تعرفت أكثر على عظمة الدور الذى تقوم به هذه الأستاذة العظيمة خاصة أن ما تكتبه وما تقوله له تأثير على كثير من المستشرقين والألمان بصفة خاصة، ويمتد تأثيرها إلى بقية دول أوروبا، لأنها دائمة السفر وإلقاء المحاضرات فى الجامعات الأوروبية الكبرى.

وفى ١٨ يناير ٢٠٠٢ تابعت الاحتفال الكبير الذى أقيم لها فى مؤسسة معهد جوته فى بون بمناسبة بلوغها سن الثمانين فى العاشر من شهر أبريل ٢٠٠٢، وباعتبارها أكبر متخصصة فى العلوم الإسلامية، واللغات العربية والشرقية وتعمل أستاذة فى جامعة بون، وحائزة على جائزة السلام للناشرين الألمان التى تعتبر أهم الجوائز الثقافية والفكرية المرموقة التى تقدم كل عام إلى إحدى الشخصيات الثقافية والعلمية ذات المكانة الخاصة..

وفى هذا الاحتفال قامت بإلقاء محاضرة موضوعها (مظاهر وأركان الإسلام) وتجمع عدد كبير من الباحثين والمفكرين والكتّاب للاستماع إليها، خاصة بعد أن أصبح الإسلام مركز اهتمام السياسيين والمثقفين ورجال الإعلام فى ألمانيا وفى العالم بعد الهجوم الإرهابى على مركز التجارة العالمى فى نيويورك ووزارة الدفاع الأمريكية فى واشنطن فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، والصورة السلبية التى أبرزتها وسائل الإعلام الغربية للإسلام والمسلمين، وحين قدمها الدكتور فالتر نوفاك، سفير ألمانيا السابق فى عدة عواصم عربية قال: إن هذه الأستاذة الكبيرة هى أفضل من يوضح الصورة الحقيقية للإسلام

ويشرح العلاقة بين الإسلام والديانات الأخرى. وتحدثت الدكتورة أنّا مارى شيمل عن بداية ظهور الإسلام، وسيرة الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – ونضاله من أجل نشر العقيدة الإسلامية، واضطهاد قريش له ولأتباعه من المؤمنين، ثم هجرته إلى المدينة المنورة، وانتصاره على المشركين، ومولد الدولة الإسلامية، وانتشار الإسلام فى العالم القديم. ثم تحدثت عن المصادر الرئيسية للدين الإسلامى وهى القرآن، والسنة والإجماع، والقياس، وأركان الإيمان فى العقيدة الإسلامية وهى : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر دون تفرقة بين أحد من الرسل، وقامت بشرح دقيق وتفصيلى لكل ركن من هذه الأركان، وتوقفت طويلا حول عقيدة (الله الواحد الأحد) والإيمان بالملائكة، ودور جبريل فى نقل الوحى إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم ، وشرحت شرحا كاملا الآية: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ وبعض الآيات الأخرى، وأشارت إلى مدى صعوبة ترجمة القرآن إلى لغات أخرى، لأنه بالترجمة يفقد بعض الجلال الذى يشعر به كل من يقرؤه باللغة العربية، كما يفقد البلاغة المعجزة فى صياغته، وعندما شرحت (الإيمان بالرسل جميعا) باعتباره ركنا أساسيا من أركان العقيدة الإسلامية، توقفت طويلا بالشرح لما جاء فى القرآن من اعتراف وتكريم للنبى موسى وللمسيح عيسى بن مريم – عليهما الصلاة والسلام – ورسالتيهما السماويتين، وعددت سلسلة الرسل من آدم إلى محمد – صلى الله عليه وسلم – خاتم الأنبياء، مع مقارنة موجزة بين الإسلام والمسيحية، وتحدثت عن احتفال الدول الإسلامية بعيد ميلاد المسيح، ومولد الرسول محمد – عليهما الصلاة والسلام –، كما تحدثت بالتفصيل عن سورة مريم وما فيها. وشرحت ركن (الإيمان) فى الإسلام فقالت: إنه الإيمان بالله، وبالكتب السماوية وتشمل القرآن وما قبله من كتب، والإيمان باليوم الآخر، والبعث والحساب و الجنة والنار، وقارنت بين مفهوم الجنة لدى المسيحيين والمسلمين، وفكرة القضاء والقدر خيره وشره، ثم انتقلت إلى مسيرة الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم –، وشرحت الفروق بين السنة وبين الشيعة وآل البيت، والأئمة، والأوضاع السياسية والاجتماعية فى الدول الإسلامية فى الوقت الحاضر، وفى النهاية أجابت بسهولة وعمق عن سيل من الأسئلة.

وهكذا كانت أنّا مارى شيمل دارسة بموضوعية للإسلام، حريصة على أن تنظر إليه بعين العالم، وبالمنهج العلمى دون تحيز أو أحكام مسبقة، ولذلك كانت موضع تقدير كبير عند كل من يعرف قدرها فى العالم الإسلامى، وإن كان اسمها لم يتردد فى مصر إلا مؤخرا.

وأنّا مارى شيمل ولدت عام١٩٢٢ فى مدينة فى وسط ألمانيا اسمها (إيرفورت) ودرست اللغة العربية – قبل أن تختار التخصص فى تاريخ العلوم، واللغات الشرقية – على يد المستشرق الألمانى الدكتور (ريتشارد هارتمان) فى برلين وحصلت على الدكتوراه فى الاستشراق عن رسالة موضوعها (القضاء الإسلامى فى مصر فى القرون الوسطى) وبعد الحرب العالمية الثانية واصلت دراستها فى

الآداب العربيـــة، والتركية، والفارسـية، وحصلت على درجة أســتاذ (بروفيســور) فى منتصف الأربعينات، ثم حصلت على دكتوراه ثانية فى أوائل الخمســينات، وعملت فى تدريس الشــريعة الإســلامية فى جامعة أنقــره بتركيا، وفى جامعة هارفارد بالولايات المتحدة، ثم احتلت كرســى الأستاذية فى قسم العلوم الإسلامية واللغات الشرقية فى جامعة بون وهى أعرق الجامعات الألمانية، وبعد ســنوات تفرغت للكتابة والتأليف، وإلقاء المحاضرات، ونشرت أبحاثها فى المجلات العلمية المتخصصة فى الاستشــراق حول موضوعات الفلسفة الإســلامية، والمعتزلة، والصوفية، كما قامت بإنشــاء مؤسسة خاصة لتقديم المنح الدراسية للعلماء والطلبة المســلمين، بالتعاون مع جامعة بون، وفى عام ١٩٩٥ حصلت على أكبر جائزة ثقافية وفكرية فى ألمانيا هى (جائزة السلام).

❑❑❑

ولم يسبق أن لقيت باحثة ألمانية فى الإسلام مثل هذا الاهتمام الواسع خارج ألمانيا مثل أنّا مارى شــيمل، فقــد ترجم معظم أعمالها إلى عدة لغــات، وصدر أكثر من ٢٠٠ كتــاب عنها وعن أبحاثها وأفكارهــا ، وهى معروفة عالميا ومقروءة باللغات الإنجليزية والفرنســية والفارســية، والتركية، والأوردو، والعربية، وترجمت بعض أعمالها أخيرا إلى اللغة الإندونيسية، وفى عام واحد هو عام ٢٠٠٠ قامت برحلات إلى إحدى عشــرة دولة فى أوروبا وأمريكا وآســيا وفى دول الخليج، و كانت تشــرف على برنامج تليفزيونى عن الإسلام فى ٨ حلقات عرضه التليفزيون الألمانى وعرض أيضا فى بعض الدول العربية.

وخلال نصف قرن كانت أنّا مارى شــيمل نموذجا للباحثة المخلصة للحق والحقيقة فى دراساتها للعقيدة والشــريعة والعلوم الإسلامية، وظلت تعمل بنشــاط كبير على مد جسور التفاهم والتقارب بين العالم الإســلامى وبين الغرب المســيحى، وفى عام ١٩٩٥ تعرضت لأزمة شديدة بسبب تعبيرها عن رأيها فى قضية ســلمان رشــدى، فقد أثارت رواية (آيات شــيطانية) التى كتبها سلمان رشدى البريطانى الجنسية الهندى الأصل، والذى كان مسلما وارتد، ووجه فى هذه الرواية شتائم مفزعة للقرآن، والوحى، وإلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – وزوجاته وبناته،وأثارت الرواية الغضب الشــديد فى العالم الإسلامى، وأصدر الخومينى فتوى بإهدار دم سلمان رشدى، واستغل الإعلام فى جميع الدول الأوربية وأمريكا هذه الفتوى للهجوم على الإســلام والمسلمين، لعدم اعترافهم بحرية الرأى. وفى عام ١٩٩٥ كانت أنّا مارى شــيمل تتسلم أكبر جائزة ألمانية، وفى حفل تكريمها قالت: إنها تستطيع أن تفهم لماذا شعر المسلمون بالاستياء تجاه هذه الرواية، وكانت هذه العبارة سببا فى تعرضها لهجوم لم يســبق له مثيل، ولا يليق بمكانتها العلمية، فقد عاملتها جامعة بون بقســوة، واتهمتهــا بأنها بهذا التصريح تؤيد فتوى الخومينى بالقتل. وتعمــد المنتقدون لها انتهاز الفرصة لتوجيه الاتهامات إليها وإلى الإســلام.. بل وتعرضت للتشكيك فى نواياها وقيمة أعمالها، وأصبح

الحوار الساخن فى طول ألمانيا وعرضها يدور حول البروفيسور أنّا مارى شيمل: هل تستحق الجائزة الكبرى التى حصلت عليها أو لا تستحقها؟ وظهرت سحابات الشكوك حول الأستاذة العظيمة. وحين سألتها عن هذه الفترة قالت باقتضاب وملامح وجهها مليئة بالحزن والمرارة: لقد كان وقتا صعبا.. وأرجوك.. لا أحب الحديث عن تلك الفترة. وهكذا كانت إجابتها عن كل من كان يسألها عما حدث لها فى بلد الديمقراطية، وحرية البحث العلمى وحرية الرأى.. وامتد الهجوم عليها إلى بلاد الديمقراطية الأخرى: أمريكا ودول أوربا.

❑❑❑

كان هدف هذه الأستاذة العظيمة دائما أن يتفهم الغرب حقيقة الإسلام، وفى رأيها أن الإسلام أكثر الديانات عرضة للهجوم، وللأحكام المسبقة، ولذلك كانت تتحمل بصبر وابتسامة هادئة نصيبها من الهجوم هى الأخرى بسبب دفاعها عن الإسلام، وتتحمل الأسئلة والملاحظات الجارحة التى وصلت إلى حد الاتهامات.

أجابت عن سؤال حول السبب فى اهتمامها بالإسلام فقالت: إن ذلك يعود إلى اهتمامها منذ صباها بالشرق وسحره وحضارته، وأنها كانت فى طفولتها تنجذب إلى الكتب التى تقع فى يدها عن الشرق وتقرؤها بشغف، وكانت معجبة بشكل الحروف العربية، وترى فيها جمالا يجذبها، وتحاول تقليدها ورسمها. وعندما بلغت الخامسة عشرة من عمرها بدأت تتعلم اللغة العربية على يد أستاذ معروف لم تكن دروسه تقتصر على اللغة العربية وقواعدها.. بل كان يلقى المحاضرات عن تاريخ الحضارة فى العالم الإسلامى، وتقول: الفضل يرجع إلى تشجيع أبى وأمى فى هوايتى هذه، وكانت والدتى أشد الناقدين لأعمالى حتى توفاها الله فى عام ١٩٧٨.

إنتاج أنّا مارى شيمل المنشور بلغ أكثر من ثمانين مجلدا عن تاريخ الشرق والإسلام، وكانت لها اتصالات فى جميع أرجاء العالم الإسلامى، وبالإضافة إلى ذلك ترجمت الكثير من النثر والشعر من اللغات العربية والفارسية والتركية إلى اللغة الألمانية، وكانت تقول: إن أعمالى قصة حب كبيرة بينى وبين الشرق الإسلامى.. وفى نفس الوقت كانت تؤكد وتكرر: أنا باحثة فقط وليس لى شأن بالسياسة، فأنا ملتزمة التزاما شديدا بالحياد السياسى.. بل أنا خارج الساحة السياسية تماما، ولا أعرف الكثير عنها، ولا أستطيع الحديث عن شأن من الشئون السياسية. ولكنها مع ذلك واجهت انتقادات من باحثين غربيين ومن فئات إسلامية، وظلت محتفظة بهدوئها ووقارها العلمى وبدعوتها إلى التسامح، كما ظلت إلى آخر يوم فى حياتها على موقفها من الدعوة إلى السلام بين الشعوب وبين أبناء الوطن الواحد، وتقول: إن السلام يساعد الناس على الشعور بالأمل والقوة. وتدافع عن الدين الإسلامى، وتقول: إن الإسلام أضاف إلى الدنيا الكثير من المبادئ والقيم النبيلة،

وساعد على تقدم العلوم والفنون، ويحزّ فى نفسى أن يتعرض الإسلام علنا، وبصورة مستمرة، ومتعمدة فى أغلب الأحيان، إلى أحكام مسبقة غير دقيقة تصوره على أنه دين شرير!

ولم تقتصر البحوث التى قامت بها أنّا مارى شيمل فى رحلة عطائها العلمى التى بدأت عام ١٩٣٧ على تبادل الآراء مع كبار الباحثين فى التصوف الإسلامى، ولكنها كانت تلتقى بالمسلمين العاديين فى كل بلد تزوره، وتستمع إليهم، وتتعرف إلى آرائهم وعقائدهم وعاداتهم.

وقالت: فى عام ١٩٤٢ كتبت رسالة الدكتوراه، وفى عام ١٩٤٦ أنهيت رسالتى التى منحتنى بها الجامعة درجة بروفيسور، وهذه الرسالة لم تنشر مع الأسف الشديد، وهى عن حضارة المماليك فى مصر، وهذه مرحلة تاريخية طالما وجدت نفسى مشدودة للعودة إليها، وتسليط الضوء عليها، ثم اكتشفت ابن خلدون فترجمت إلى الألمانية بعض فصوله من مقدمته الشهيرة.. أما الذى يؤجج روحى ويسيطر على نفسى فهو الشعر.. الشعر العربى.. والشعر الفارسى أكثر.. وعلى الأخص الشعر الفارسى الصوفى، ولذلك فإن أول كتاب نشر لى كان دراسة عن لغة التصوير الخيالى فى شعر جلال الدين الرومى(١٢٠٧ - ١٢٧٣) وهذا الشاعر كتبت عنه كثيرا، ولى عدة كتب باللغتين الألمانية والإنجليزية فى دراسة أفكاره وأعماله، وترجمت الكثير من أعماله إلى اللغة الألمانية، وبدأت اهتمامى بترجمته منذ كان عمرى ثمانية عشر عاما ولم تمر فترة طويلة حتى استحوذ الشاعر الكبير محمد إقبال، على فكرى، وهو الأب الروحى لدولة باكستان الحديثة، وتوفى عام ١٩٣٨، وقد تفرغت لإعداد كتب عديدة عنه، ونقلت ديوانه (رسالة الشرق) وهو فى الرد على الكاتب الألمانى المعروف جوته الذى كتب (الديوان الشرقى الغربى). ونقلت لإقبال أيضا كتاب (سير الأفلاك) شعرا إلى اللغة الألمانية، ونثرا إلى اللغة التركية. ووضعت عدة مؤلفات عن شعراء عظام من شبه القارة الهندية الباكستانية من أمثال الصوفى الكبير (ميردد) المتوفى عام ١٧٨٥، وشاعر اللغة السندية الكبير (شاه عبد اللطيف) المتوفى عام ١٧٥٢، كما قمت بإعداد بحوث نشرتها فى كتب عديدة عن التاريخ الأدبى والسياسى للمسلمين فى شبه القارة الهندية الباكستانية. ونقلت إلى الألمانية كثيرا من أبيات الشعر عن الفارسية والأوردية، ولغة السند، ولغة الباشتو. وقمت بتأليف كتب عن تركيا، وترجمت أشعارا تركية، كما ترجمت رواية تركية إلى الألمانية. ومع كل ذلك ظل الحب لفن الكتابة والخط العربى فى قلبى، مما جعلنى أخصص سنوات لدراسته ومعرفة أسراره، وذهبت من أجل ذلك إلى متحف المتروبوليتان فى نيويورك إلى أن تمكنت من معرفة الكثير من أسراره الجميلة، وبعد أن تقدمت برسالة الدكتوراه الثانية فى عام ١٩٥١، عن تاريخ الأديان، وقعت أسيرة هذا الموضوع (تاريخ الأديان) وخاصة علم الظواهر الدينية، حيث حاولت الاعتماد على ذلك فى فهم الإسلام.

□□□

يقول الكاتب البريطانى بيرتراند راسل فى بحثه عن أنّا مارى شيمل: إن أبرز مؤلفاتها جميعا كتاب (الأبعاد الصوفية للإسلام) وهو خلاصة لجوهر أعمالها عن التصوف والصوفية فى الإسلام.. ويقول أيضا: إن أنّا مارى شيمل بعيدة كل البعد عن التطرف الدينى، وهذا ما تؤكده كتاباتها، ومحاضراتها، ولذلك كانت حريصة على الابتعاد عن الحديث عن الإسلام السياسى، وظلت ترفض كل المحاولات التى كانت تسعى إلى جرها للاشتراك فى النقاش الدائر حول الإسلام السياسى، وجماعات الإسلام السياسى، وتقول: إن هذا النقاش يسىء إلى صورة الإسلام، فنحن حين ندرس مبادئ وقيم الإسلام نجد حقيقته، وحين ننجرف إلى الحكم على الإسلام بما تقوله وما تفعله جماعات الإسلام السياسى فسوف نجد صورة تسىء إلى الإسلام، وهذه الصورة ليست للإسلام، ولكنها من صنع هذه الجماعات، فلماذا أترك الأصل وأجرى وراء الصورة غير الصحيحة؟

وهذا هو السبب فى أنها بالرغم من اهتمامها بالإسلام فى سن مبكرة جدا، منذ كانت فى الخامسة عشرة من عمرها، وظلت تبحث وتدرس وتكتب وتحاضر عن كل جوانب الإسلام، فإنها مع ذلك لم تشارك فى أى نشاط سياسى من أى نوع حتى فى داخل ألمانيا ذاتها، ولم يكن للسياسة أى تأثير على أفكارها ومواقفها، وظلت محتفظة بهذا الموقف العلمى الحيادى حتى عندما انتدبتها جامعة هارفارد الأمريكية للتدريس فى قسم الثقافة الهندية والإسلامية.

حصلت أنّا مارى شيمل على جوائز تقدير عديدة من أنحاء العالم يصعب حصرها، منها وسام الاستحقاق الكبير، أعلى وسام ألمانى فى عام ١٩٨١، وظلت تعمل بنشاط، تحسد عليه، دون أن تشكو من التعب حتى بعد أن تجاوزت الثمانين من عمرها، وكانت تقول: أريد متابعة أسفارى، ولقاء المفكرين والعلماء، وإلقاء المحاضرات، وترجمة الكتب والأشعار فى الموضوعات الخاصة بالإسلام حتى آخر لحظة من عمرى. وهذا ما فعلته.

❑❑❑

وفى المحاضرة التى ألقتها بمناسبة تكريمها وحصولها على جائزة السلام قالت: إن تفهم الثقافات الأجنبية والتسامح معها يجب أن يكون جزءا من السياسة الألمانية. ولقد تعرضتُ لحملة شديدة الضراوة كانت تبدو وكأنها تهدف إلى تقويض الرسالة التى خصصت حياتى من أجلها، وهى تحقيق التفاهم بين الشرق وبين الغرب، ومع ذلك لم تدفعنى هذه الحملة إلى الانزواء، لأنى أشعر بالالتزام بأن يكون عملى وعمل المستشرقين هو السعى إلى الحوار الهادئ مع جميع ذوى النوايا الحسنة فى العالم الإسلامى. ورسالتى أيضا التى قضيت نصف قرن من عمرى فى أدائها لكى أتعلم أن منهج العلم مختلف عن منهج الصحافة والسياسة، وإن كان من المفروض أن يجمع بينهما الحرص على حرية الكلمة، وقد أعلنت أنى أرفض الفتوى الخاصة بسلمان رشدى، وسوف أسعى بأسلوبى الخاص إلى الدفاع عن حرية الرأى وحرية الكلمة.

وقالت: إننى أدرك أن الشعر هو (اللغة الأم للجنس البشرى) التى تربط بين الشعوب، لأنه من أهم مكونات جميع الحضارات، فالشعر هو وسيط السلام، وقد اختلفت كثيرا علاقات الغرب مع العالم غير الغربى، فقد تابع الغرب بذعر تقدم المسلمين فى حوض البحر الأبيض فى القرنين الثامن والتاسع، ولكن الغرب فى ذلك الوقت أخذ عن العرب فى الأندلس أصول العلوم الطبيعية المعروفة اليوم، وظلت مؤلفات الرازى، وابن سينا، المراجع المعتمدة فى الطب فى أوربا حتى مطلع العصر الحديث. وأثمرت كتابات ابن رشد مناقشات فى اللاهوت مهدت الطريق إلى عصر التنوير فى أوربا. وساعد المترجمون فى طليطلة على نقل التراث العلمى إلى أوربا. وكان اليهود والمسيحيون والمسلمون يتعايشون فى سلام فى ظل الحضارة الإسلامية، ويعملون على نقل العلوم العربية إلى بلاد الغرب. وقد علّم (لول الكاتالونى) احترام الأديان بعضها بعضا، والحوار بينها من أجل السلام، ثم كان الحصار التركى لعاصمة النمسا فيينا عام ١٥٢٩ وما تبعه من مجازر سالت فيها الدماء أنهارا، غير أن العالم الغربى تعرف فى ذلك الوقت إلى الحياة فى الشرق من خلال تقارير الرحالة والتجار. وصدرت الترجمة الفرنسية الأولى لروايات ألف ليلة وليلة فى مطلع القرن الثامن عشر، فعرفت أوربا سحر الشرق، والمغريات الحسية، وكان ذلك مصدر إلهام لأجيال من الشعراء، والرسامين، والموسيقيين. كما ساعدت الدراسات العربية والإسلامية والهندية على إثراء عصر التنوير فى أوربا، وأصبحت جميعها تخصصات مستقلة فى تاريخ العلوم. وكانت الأعمال العلمية والترجمات من العربية هى الباعث على ظهور الشعر الاستشراقى فى اللغة الألمانية الذى يحتل (جوته) مكان الصدارة فيه، خاصة ديوانه (الديوان الشرقى) بما فيه من تعليقات وحواش قام فيها بتحليل الحضارة الإسلامية تحليلا مازال صالحا حتى اليوم، كما نشر (روكرت) عام ١٨٢٠ بعد صدور ديوان جوته بعام واحد-قصائده الأولى المستوحاة من الشعر الفارسى، وكان الألمان يستحسنون سماع الأشعار التركية.

وقالت: نحن لا نتلقى من وسائل الإعلام. ما يضيف إلينا معرفة جديدة، ولكن الإعلام يقدم لنا كل يوم صورة للعالم تملأ نفوسنا رعبا وقلقا، فهل نستطيع أن نكوّن من الإعلام صورة إيجابية حقيقية عن الحضارة الإسلامية، وهى صاحبة فضل علينا؟ إن الحضارة الإسلامية تبدو غريبة على معظم الأوروبيين اليوم، لذلك فإنهم يزعمون أن الحضارة الإسلامية لم تعرف أبدا الإصلاح أو التنوير! ولذلك رفض (جاكوب بوركهارت) هذه الحضارة الإسلامية منذ قرن من الزمان رفضا باتا وقال: إن هذه الحضارة غير قادرة على التغيير، وكثير ممن يسيئون فهم الحضارة الإسلامية لا يدركون قيمة الانجازات الحضارية والثقافية فى العالم الإسلامى من غرب أفريقيا حتى إندونيسيا، وما فى الحضارة الإسلامية من قدرة على العطاء والنمو بأساليب مختلفة عن الأساليب الغربية، ولكنها تتفق فى أساس مشترك، هو الإيمان بالله الواحد الأحد.

❑❑❑

وقالت أيضا: إنه يكاد يكون مستحيلا فى هذا العصر التعرف على الجوانب الإيجابية للإسلام فى الحياة اليومية، لأننا فى عصر الطوفان الإعلامى الغربى، وتغمرنا نشرات الأخبار المتتالية الموجهة إلينا بأسلوب الإعلانات التجارية. ولذلك لا نتمكن من التعرف على الجوانب المتعددة والإيجابية فى الإسلام.

وقالت: إن المثل القائل (الإنسان عدو ما يجهل) ليس مثلا خاصا باللغة اليونانية، فهو معروف فى اللغة العربية أيضا. ويروى الشاعر الكبير جلال الدين الرومى الذى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى فى كتاب ألفه نثرا باللغة الفارسية (أن صبيا شكا إلى أمه أنه يرى كائنا أسود فيصاب بالرعب فى كل مرة، فنصحته أمه بأن يخاطب هذا الكائن المخيف لكى يعرف من طريقة إجابته طبيعته وشخصيته، وبذلك يحدد كيف يتعامل معه)، والمعنى الذى أراد جلال الدين الرومى أن يقوله هو: أن (الكلمة) هى التى تدل على شخصية المتكلم، كما تدل كعكة اللوز بما فيها لمن يأكل منها.

وفى القرآن ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ (سورة إبراهيم آية ٢٤).. كما أن فى معظم الديانات أن الكلمة قوة خالقة وحاملة للوحى، سواء كانت كلمة الله التى أصبحت لحما ودما، كما حدث فى خلق المسيح - عليه السلام - أم كلمة الله التى أصبحت فى الإسلام قرآنا.. فالكلمة هى الأمانة التى حملها الإنسان، وعليه أن يرعاها، ولا يجوز له أن يحط من شأنها، أو يقلل من قدرها، أو يحرف معناها، أو يقتلها، كما يحدث غالبا فى هذا الزمان.. لأن الكلمة لها طاقة تفوق تقديرنا لها. ومسئولية الشاعر الكبرى، أن يراعى سلطان الكلمة. ومسئولية المترجم أيضا أن يحفظ للكلمة معناها برقة، فإن خطأ طفيفا فى الترجمة قد يؤدى إلى سوء فهم كبير!

والعرب القدماء كانوا يعتقدون أن كلمات الشاعر لها تأثير لا يقل عن فعل السهام، ولذلك كان كل حاكم دكتاتور يستخدم الشعراء ليعلنوا عن أمجاده وانتصاراته، وهذا الدور المهم للكلام المنظوم فى الحضارة الإسلامية يفوق - بما لا يقاس - مثيله فى الحضارة الغربية حتى يومنا هذا. فإذا كنا نهتز للموسيقى، فإن المسلم يهتز حين يستمع إلى ايقاع اللغة. وتقول: لقد عرفت استانبول عن طريق الشعر، حين اطلعت على قصائد الشعراء الأتراك التى نظموها طوال القرون الخمسة الماضية فى هذه المدينة الساحرة. فى كل ركن فيها، وجعلتنى هذه القصائد التى يتردد صداها فى باكستان أزداد شغفا بحضارة الإسلام. وقد تعرض أحد طلابى فى جامعة هارفارد إلى مأساة، إذ كان ضمن الرهائن الأمريكيين فى طهران، فلما تحدث إلى حراسه الإيرانيين وأنشدتهم بعضا من الشعر الفارسى لجلال الدين الرومى وحافظ الشيرازى وإقبال تغير موقفهم منه، ونشأت بينه وبينهم لغة مشتركة ساعدت على تجاوز الاختلاف الأيديولوجى بين الطرفين.. لذلك فإننى أميل إلى رأى (هردر) الذى قال: لاشك أننا نتعرف بالشعر على العصور، وعلى الأمم بصورة أعمق مما نتعرف عليها بالأساليب المضللة الفجة فى التاريخ السياسى أو العسكرى.

هـذه قطرة فى بحر هذه المستشـرقة العظيمة.. التى ذهبت.. وتركـت عصر المحبة والإنصاف للإسلام والمسلمين.

وهنـاك الكثير جدا مما يقال عنها: لكى نعرفهـا.. ونضعها فى مكانها اللائق على رأس قائمة غير المسلمين الذين قالوا كلمة حق عن الإسلام.

ولقد سـار فى جنازة أنّا مارى شـيمل يوم الثلاثاء (٤ فبراير ٢٠٠٣) عدد كبير من المسلمين، كان فى مقدمتهم الدكتور محمد زكى اليمانى وزير البترول السعودى الأسبق ومعه مجموعة من المفكرين جاءوا من أنحاء العالم الإسلامى ليعبّروا عن تقديرهم لنزاهة وموضوعية هذه المستشرقة العظيمة التى تفرغت لأكثر من نصف قرن فى إعداد الدراسـات الأكاديمية، والكتابة فى المجلات العلمية، وإلقاء المحاضرات فى أنحاء أوربا وأمريكا لتقديم الإسلام للغرب بما يستحقه من الاحترام.

فى كل زيارة لها إلى القاهرة كانت تؤكد قائلة: إن شـغفى الأكبر بالحضارة الإسـلامية بدأ منذ طفولتـى ويزداد عمقا كلما تعمقت فى دراسـة التراث الفكرى والشـعرى والصوفـى، وهذه الثروة الروحية والعلمية الهائلة التى تركها شيوخ وعلماء الإسلام.

وحين زارت مجلة أكتوبر كان حديثها يدور حول الظلم الذى يتعرض له الإسـلام على يد من لم يحسنوا دراسته، فالإسلام - كما استخلصت من دراساتها - دين يحترم الحرية الدينية والفكرية، والكرامة الإنسـانية، ويدعو إلى العمل وإعمار الكون، كما يدعو المسلمين إلى أن يعيشوا الحياة ولا ينعزلوا عنها، ويعملوا لدنياهم كأنهم يعيشون إلى الأبد، ويعملوا فى نفس الوقت لآخرتهم كأنهم يموتـون غدا، وهذه هى قمة الحكمة على لسـان الرسـول - صلى الله عليه وسـلم -.. وقالت: إن الإسلام يحترم المرأة - على عكس ما يردده البعض - يكفى قول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: إن الجنـة تحت أقدام الأمهات، وكل امرأة هى أم أو سـتكون أمًا! وقالت أيضا: إن الإسـلام برىء من الإرهاب على النحو الذى يحاول به البعض الربط بين الإسـلام وبين الإرهاب والادعاء بأن فى الإسلام دعوة لإرهاب الآخرين.

وقالت أيضا: لقد بدأ اهتمامى بالإسلام وبالشرق وثقافته عندما قرأت حديثا نبويا يقول: (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) ولم أكن أعرف أنه حديث نبوى، فتعلمت اللغة العربية.. وقد عملت أستاذا فى جـامعة بون فى ألمانيا، وأنقرة فى تركيا، ولاهور فى الهند، ثم فى جامعة هارفارد الأمريكية، ولكننى فى أمريكا لم أشـعر بالألفة، ولذلك كنـت دائماً أعتبر فترة إقامتى فى أمريكا غربة غريبة كما يقول الصوفية، أما فى بلاد الشرق فإننى أشعر دائماً بالراحة النفسية وأجد فيها نوعا من السمو الروحى لا يعرفه إلا من يمتلئ قلبه بحب الشرق.

وإجابة عن سـؤال عن رأيها فى الإسـلام قالت بوضوح: إننى أحب الإسـلام، ولولا أننى أحبه مـا كتبـت عنه أكثر من ثمانين كتاباً، وقد وجدت فيه دين تسـامح، وروحانية وتوقفت كثيرا عند

كلمات القرآن: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة ٢٥٦). وقد قلت لمن وجهوا إليّ النقد: إنى أحب الرسول محمدا – صلى الله عليه وسلم –، وعندما سألونى عن رأيى فى غضب المسلمين بسبب رواية سلمان رشدى: آيات شيطانية قلت: لقد جرح سلمان رشدى مشاعر المسلمين. وتعرضت بسبب كلماتى هذه إلى حملة اضطهاد شديدة، ولولا أن الرئيس الألمانى فى ذلك الوقت كان يساندنى لكانت الذئاب قد افترستنى، ولكننى مع ذلك قضيت فى هذه المحنة ستة شهور.

وفى كل مرة كانت تزور فيها القاهرة كانت تذهب لزيارة قبر القطب الصوفى الكبير ابن عطاء الله السكندرى فى المقطم.. ولأنها أقامت سنوات فى تركيا وظلت بعد ذلك كثيرة التردد عليها، فقد زارت قبر جلال الدين الرومى مائة مرة كما تقول لأنها أحبت شعره الصوفى ووجدت فيه نداءات استجابت لها روحيا.

ولشدة إعجاب المثقفين فى باكستان بها أطلقوا اسمها على شارع فى مدينة لاهور.

❑❑❑

وفى رأيها أن التشهير بالإسلام والمسلمين فى الغرب قضية لها جذور وعمق تاريخى، ويمكن فهم الأسباب من كلمات (جلاد ستون) الزعيم السياسى البريطانى المعروف التى قال فيها: (لن تستطيع أوربا أن تسيطر على دول الشرق، بل لن تستطيع أن تعيش فى مأمن ما بقى هذا القرآن حيا يُتلى)، وقد ظل هذا الموقف يتصاعد عبر الزمان إلى أن تبلور على يد المفكر الاستراتيجى الأمريكى صمويل هنتنجتون فى نظرية صدام الحضارات، ولكن يجب ألا ننسى أن هناك كتابات أخرى تعبر عن الاحترام للإسلام، فالفيلسوف الألمانى (شبنجلر) فى كتابه (أفول الغرب) قال إن حضارة الإسلام حضارة جديدة أوشكت على الظهور فى أروع صورة، والإسلام يملك اليوم أقوى قوة روحانية عالمية نقية.. والحقيقة كما قال (جاردنر): إن القوة التى تكمن فى الإسلام هى التى تخيف الغرب. وكذلك نجد مفكرا كبيرا مثل (بول ديورانت) يقول: إذا حكمنا على العظمة بما كان للرجل العظيم من أثر فى الناس، فلابد أن نقول إن محمدا – صلى الله عليه وسلم – كان أعظم عظماء التاريخ.. ثم تقول: المشكلة تكمن فى أن المسلمين مقصّرون فى حق أنفسهم، ولا يعرفون كيف يقدمون للعالم أنفسهم، وتاريخهم، وعقائدهم، وسياساتهم.. المسلمون لا يستخدمون وسائل الإعلام كما ينبغى.. ولا يجيدون فنون الدعاية والإقناع.. ولا يدرسون ما فى الغرب من تيارات فكرية وسياسية واستراتيجية واقتصادية.. وأعتقد أن العولمة تمثل أحد المفاهيم الاستعمارية المخادعة.. وأرى أن على المسلمين أن ينهضوا، ويقدموا أنفسهم للعالم من جديد.

❑❑❑

وفى حوار معها قالت أنّا مارى شيمل: إن مشكلة العالم الإسلامى أنه لا يزال جامدا، وواقفا عند النقطة التى كان عليها منذ قرون لم يتحرك، ولم يتطور، ولم يساير حركة التاريخ، ولذلك أصبح

المسلمون كيانا كبيرا من حيث العدد، ولكنهم ليسوا كيانا سياسيا، وليسوا تكتلا اقتصاديا، ولم يستطيعوا التوحد، ولذلك فإن كلامهم كثير وأفعالهم قليلة.. وأصواتهم عالية بدون تأثير.. وهذا معناه أن المسلمين حكموا على أنفسهم بالاغتراب.

وفى محاضرة لها فى مكتبة مبارك فى القاهرة قالت: إن الذى يجب أن يعرفه المسلمون هو أن الاستشراق ليس عدوا للإسلام، ولكنه وسيلة جيدة لتعلم منهج وعقيدة الإسلام، ولذلك حين سألونى فى الخرطوم: هل أنتِ مستشرقة؟ قلت: نعم.. أنا مستشرقة.. وأفخر بذلك.. فالاستشراق نافذة للتفاهم بين الأديان والحضارات والثقافات. والإسلام عندى دين عميق فيه التوكل على الله، وفيه الخصوصية الروحية، وأنا دائماً أضع أمامى عبارة المؤرخ (ديكنز)فى كتابه: (معالم تاريخ الإنسانية) التى قال فيها: (إن الإسلام ساد لأنه خير نظام اجتماعى وسياسى ظهر فى التاريخ).

وقالت أيضا: إننى أدعو المسلمين إلى إنشاء أقسام لدراسة الغرب دراسة متخصصة لما فيه من عقائد، وأفكار، وثقافات، وتاريخ قديم وحديث، والتعرف على ما يظهر فى الغرب من تيارات معاصرة، وبذلك يصبح لدى المسلمين أدوات الفهم للغرب، والقدرة على التعامل معه وعلى مواجهته أيضا، وأيضا يكتسبون القدرة على المقاومة لحماية أنفسهم من أن تسحقهم موجات التغريب التى تكتسح دول العالم، خاصة مع سيطرة الغرب بما لديه من تقدم تكنولوجى.

لقد أنفقت أنّا مارى شيمل عمرها فى دراسة الفكر والتصوف الإسلامى، ومقارنة الأديان، وترجمة النصوص والأشعار الإسلامية.. ولذلك فإنها تعتبر فى ألمانيا وغيرها من الدول والمؤسسات الدولية (مرآة الإسلام وسفيرة الإسلام فى الغرب).. وقد أعلنت أكثر من مرة: أنا أحب الإسلام كثيرا، وسأظل أدافع عنه حتى وفاتى، مهما كانت هناك مقاومة عنيفة من جانب الغرب ضد الإسلام.. فإننى سأظل أجتهد.. وأجاهد.

❑❑❑

أنّا مارى شيمل لم تتزوج.

سئلت: ما ديانتك؟ فأجابت: الله أعلم.

فى عام ١٩٩٢ أقيم احتفال كبير فى ألمانيا لتكريمها باعتبارها صاحبة مدرسة فى الاستشراق ودراسة الإسلام وبمناسبة بلوغها سن السبعين، وألقى تلميذها البروفيسور يوحنا كريستوف بيرجل محاضرة عنها نشرها بعد ذلك فى كتاب بعنوان: (إن الله جميل يحب الجمال). قال فيها: إنها دائماً تكرر ملاحظتها عن عدم اهتمام الدول العربية بدرجة كافية بما فى الدول الإسلامية غير العربية من مذاهب وأفكار وتيارات إسلامية، ولذلك تخلو المكتبة العربية من المراجع المتخصصة فى الآداب الإسلامية فى إيران، والهند، وباكستان، وتركيا، وإندونيسيا وغيرها، فهل هناك

خصام بين الدول العربية وبين هذه الشعوب الإسلامية يحول دون ترجمة آثارها وآدابها إلى اللغة العربية، بينما يهتم بها المستشرقون، ولهم السبق فى اكتشاف هذه الآداب الإسلامية وترجمتها إلى اللغات الأوربية، بينما ما زالت هذه الآداب مجهولة تقريبا للمثقف العربى؟!

وتقول: إن عظمة الإسلام تظهر فى قبوله لكل الأديان السماوية، وهى معجبة بأبيات الشعر التى قال فيها الصوفى الكبير محيى الدين بن عربى:

لقد صار قلبى قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان، ودير لرهبان
وبيت لأوثان، وكعبة طائف وألواح توراة، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّى توجهت ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى

وتقول: هذا الكلام قمة التسامح، وتعبير عن القلب الإسلامى الكبير الذى لا يضيق بأى إنسان.. ولا يعادى إنسانا بسبب عقيدته.. ويتعامل مع الإنسان على أنه إنسان.. ويفتح قلبه لكل إنسان مهما تكن عقيدته.. ولم أجد فى كل ما قرأت مثل هذه الدرجة من التسامح ومحبة الإنسانية..

❑❑❑

وأنّا مارى شيمل لها تلميذ مصرى مفتون بها.. ترجم بعض أعمالها.. وكان مرتبطا بها.. هو الدكتور ثابت عيد الباحث فى إحدى جامعات سويسرا، وكثيرا ما كان يسافر إلى ألمانيا لكى يلتقى بها.. وقد ترجم عن الألمانية مقال تلميذها المستشرق الألمانى يوحنا كريستوف بيرجل عن حياتها وأعمالها، ويحكى بيرجل كيف بدأت علاقته بها، فيقول: تعرفت عليها فى شتاء ١٩٥٦ فى أنقرة، وكنت قد ذهبت إلى تركيا كطالب شاب بمنحة تبادل ثقافى، وكانت هى تدرّس هناك باللغة التركية – فى كلية أصول الدين – تاريخ الأديان المقارن، والفن الإسلامى، فأصبحت أحد أفراد المجموعة التى تتلمذت على يديها، وكان بعض كبار المستشرقين الألمان ينظرون إليها فى ذلك الوقت على أنها فتاة حالمة، مفتونة بالشرق الإسلامى، ولو كانوا قد استمعوا مثلى إلى محاضراتها وقرءوا إنتاجها الغزير باللغة التركية لكانت هذه الغطرسة قد تبددت على الفور، لكن كبار المستشرقين الألمان لم يكونوا على علم باللغة التركية، وعندما صدر كتابها: (مقدمة فى تاريخ الأديان المقارن) وكتاب: (سيرة الصوفى ابن الخفيف الشيرازى) فى عام ١٩٥٥ أثبتت بهما أنها عالمة كبيرة، وأعلنت حبها للإسلام وللتصوف الإسلامى، ودائما كانت تقول: لا أستطيع أن أبحث فى موضوع لا أحبه، فالحب عندى شرط أساسى للبحث العلمى فى أى موضوع، وكل موضوع أحبه يثمر عملا مكتوبا.

ويقول تلميذها بيرجل: كانت شيمل تحب القطط، وكنا نراها عندما نغادر الجامعة فى تركيا بعد انتهاء المحاضرة تنحنى على الأرض لترفع إحدى القطط وتضمها إلى صدرها، وبعد سنوات نشرت كتابا بعنوان: (القطة الشرقية) صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٨٣والثانية سنة ١٩٨٩..

وكان التشوق إلى الله يملأ قلبها، وهذا ما جعلها تتعلق بالشاعر الصوفى التركى جلال الدين الرومى مؤسس الطريقة المعروفة باسم (الدراويش) فى مدينة قونيا بتركيا، وفى هذه المدينة كانت تتجه إلى قبر جلال الدين الرومى، وقد تحول إلى متحف يسوده الهدوء وتقضى فيه أوقاتا طويلة خاشعة تتأمل. واهتمت أيضا بدراسة الإسلام فى باكستان والهند، وركزت أبحاثها حول الإسلام فى هذه المنطقة فترة استمرت ٢٥ عاما كانت خلالها أستاذة كرسى لمادة (الإسلام فى الهند) فى جامعتى هارفارد وماشوستس. وظلت تقول طوال حياتها إنها شعرت فى أمريكا بالغربة الغريبة، بينما وجدت الراحة فى الشرق (موطن الروح والنور).

وهى حاصلة على عشرات الأوسمة والجوائز العلمية من مختلف أنحاء العالم.. من ألمانيا.. والولايات المتحدة.. وتركيا.. وإيران.. وباكستان.. ولقيت التكريم من الجامعات ومراكز الأبحاث ومن الدول أيضا.. ففى سنة ١٩٦٥ حصلت على وسام نجم القائد الأعظم أكبر وسام فى باكستان، وفى سنة ١٩٨٣ منحتها الحكومة الباكستانية وسام هلال الامتياز، وفى سنة ١٩٨٩ حصلت على نوط الاستحقاق الكبير من الحكومة الألمانية، وفى سنة ١٩٩٣ حصلت على ميدالية جامعة تيبينجن تقديرا لأعمالها التى تدعم الفهم الصحيح للأديان، وفى سنة ١٩٩٥ حصلت على جائزة السلام أكبر جائزة فى ألمانيا. وحصلت على أكثر من عشرين شهادة دكتوراه فخرية. وفى سنة ١٩٨٢ أطلق اسمها على شارع فى مدينة لاهور فى باكستان. وفى سنة ٧٢ أصدرت مجلة (فكر وفن) الثقافية باللغتين العربية والألمانية، وأصبحت رئيسا للجمعية الدولية لعلم الأديان المقارن من سنة ١٩٨٠ حتى سنة ١٩٩٠، وكانت رئيسا للمنتدى الألمانى- الباكستانى، ورئيسا لجمعية إقبال فى أوربا، وعضوا فخريا فى الجمعية الألمانية الشرقية، والجمعية الأمريكية لدراسات الشرق الأوسط، والجمعية الأوربية للدراسات الإيرانية.. فهى أذن شخصية لها ثقل عالمى ومكانة علمية مما يجعلها بحق صوت الإسلام فى العالم كله شرقا وغربا.

❑❑❑

وفى حديث لها مع الدكتور ثابت عيد نشر فى (مجلة أكتوبر) فى عدد ١٠ مارس ١٩٩٦ أكدت أنَّا مارى شيمل استنكارها لسلوك الغرب تجاه الإسلام، ووجهت إنذارا شديد اللهجة إلى أعداء الإسلام، لأنهم على باطل، قالت فيه: إن الفكرة السائدة فى الغرب بأن الإسلام يعادى المرأة فكرة خاطئة، بل إن فى الغرب مفكرين يقولون: إن المرأة فى الإسلام كائن بلا روح، ولكى نعرف كذب هذا الادعاء نعود إلى القرآن الكريم، وسوف نرى أنه يسوِّى بين الذكر والأنثى، وبين المؤمنين والمؤمنات، ولم يفرق بينهما فى مجال الفرائض الدينية، وإذا قيل: إن للمرأة نصف نصيب الرجل فى الميراث فإن ذلك لسبب عملى، فالمرأة حين تتزوج تحصل على مهر مناسب، والزوج هو المسئول شرعا عن الإنفاق عليها، وهكذا تظهر العدالة فى توزيع الأعباء والمسئوليات وفى النهاية

سنجد أن المرأة هی الرابحة، كذلك ما يقال عن تعدد الزوجات فی الإسلام، فالقرآن يعطی رخصة ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ (النساء - ٣) نجد أولا أن التعدد ليس واجبا أو فرضا ولكنه رخصة وهو مشروط بشرط العدل، ومجرد الخوف من عدم القدرة على تحقيق العدل يعنی عدم السماح بالتعدد. ومن الناحية العملية فإن وجود سيدات أرامل كثيرات فی الحروب سبب يجعل التعدد لصالح المرأة ولحمايتها. ويجب أن نعلم أن الرجل فی الجاهلية كان يحق له الزواج بعدد غير محدود من النساء، فجاء الإسلام وحدد العدد وجعل لهذا التعدد شرطا لازما وهو العدل، مما جعل بعض رجال الإصلاح فی الفقه يقولون إن الزوجة الواحدة أفضل من الناحية الشرعية، لأن الرجل يصعب عليه أن يحقق العدل فی مشاعره بين زوجاته.

أما عن عزل المرأة المسلمة وتحريم مشاركتها للرجال فی المجالس، فتقول: إن ذلك ليس من الشريعة، ولكنه نتيجة تطورات اجتماعية وسياسية، ولن نجد آية فی القرآن تفرض على المرأة الانعزال عن المجتمع، أو إبعادها عن أنشطة الحياة. وما حدث من فرض العزلة على المرأة جاء نتيجة أفكار لا وجود لها فی القرآن، ونتيجة التفسير الشعبی الساذج للقرآن، والتفسير المتأثر بالأوضاع الاجتماعية والثقافية والسياسية فی مجتمع من المجتمعات الإسلامية، أو نتيجة جمود العادات وتأثير حضارات أخرى غير إسلامية على بعض مجتمعات المسلمين. ففی الهند مثلا، وتحت تأثير الهندوسية لم يكن مسموحا للأرملة المسلمة بأن تتزوج مرة أخرى، وهذه ليست من أحكام الإسلام ولكنها من التعاليم الهندوسية، ولذلك بدأ مسلمو الهند فی محاربة مثل هذه التأثيرات الغريبة عن الإسلام. وهكذا يجب أن ننظر إلى كثير من الأمور من منظور اجتماعی وتاريخی.

وقالت: إننی أقول دائما للغربيين الذين يشوهون صورة الإسلام: إن الإسلام منح المرأة حق الاحتفاظ باسمها، وبما تملكه من مال قبل زواجها، وبما تكسبه بعد الزواج، وهذا يتضمن حق المرأة فی أن تعمل وتكسب من أية مهنة أو تجارة، والمرأة فی أوربا لم تتوصل إلى حق الاحتفاظ بما تملكه من مال بعد زواجها إلا منذ فترة قريبة.

وتقول: إننی كمؤرخة للأديان أقف بإعجاب عند الآية ١٨٧ من سورة البقرة التی تحدد العلاقة بين الرجل والمرأة فی إطار الزواج: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ واللباس يعنی الذات الأخرى، أو النفس الأخرى، وبذلك يكون معنى الآية أن الرجل والمرأة يكمل كل منهما الآخر، وأن كلا منهما هو النصف الأفضل للآخر، وأعتقد أنه يجب تسليط الضوء على هذه الآية عند الحديث عن مكانة المرأة فی الإسلام، لأن هذه الآية تؤكد المساواة بين الرجل والمرأة بما لا يدع مجالا للشك.

□□□

وتقول: إن ما يقال فى الغرب من أن العقيدة الإسلامية عقيدة منحرفة، اتهام باطل وجهه مسيحيو القرون الوسطى إلى الإسلام. ومسيحيو القرون الوسطى اعتبروا الإسلام هرطقة مسيحية، بل إن بعض الأساطير فى القرون الوسطى تقول: إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - كاردينال مسيحى استاء لعدم اختياره بابا، فقام بالانفصال عن الكنيسة، وأسّس لنفسه ديانة جديدة، وقد أثارت مثل هذه الكتابات الفزع من الإسلام ومن الرسول فى نفوس المسيحيين العاديين فى الغرب، لأنهم اعتقدوا أنه ليس من الممكن أن تظهر ديانة سماوية أخرى بعد المسيحية، وهذا الرأى ما زال شائعا بين الكثير من الأوساط المسيحية حتى يومنا هذا. ومن المؤسف أن مثل هذه الأفكار الخاطئة تبقى إلى وقت طويل فى ذاكرة الأفراد، وفى (الوعى الجماعى) و(اللاشعور الجماعى) فى الغرب، ويمكن إحياؤها فى أى وقت.

□□□

هل انتشر الإسلام بحد السيف؟.. وهل الإسلام دين عنف؟

تقول أنّا مارى شيمل: هذا ادعاء شائع فى الغرب، ويتجاهل القائلون به حقيقة ثابتة، هى أن جميع الديانات استخدمت الحديد والنار فى حروبها الدينية، بما فى ذلك المسيحية. والفتوحات الإسلامية تمت لأسباب ودوافع سياسية بحتة، ولم تحدث لنشر ديانة الإسلام. وعلى سبيل المثال فإن القائد الإسلامى الكبير تيمور (توفى سنة ١٤٠٥) دمر دولة المسلمين من الترك والفرس والعرب، ولم يفعل ذلك لنشر الإسلام، لأن الذين حاربهم كانوا مسلمين، ولكنه حارب لأسباب سياسية، من أجل تدعيم سلطته. ومثل هذه الأحداث، وخاصة فتوحات تيمور كان لها أثر كبير فى أوربا، وساهمت فى تعميق وتثبيت فكرة العنف فى الإسلام. مع أن الإسلام لم ينتشر بحد السيف فى شبه القارة الهندية، وماليزيا، والصين وغرب أفريقيا، بل انتشر عن طريق الصوفيين والتجار الذين قدموا العقيدة الإسلامية بطريقة بسيطة لهذه الشعوب.

وعلى العموم حديث الدكتورة أنّا مارى شيمل طويل، وعميق، ومهم جدا، وأتمنى أن تهتم وزارة الأوقاف، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وجامعة الأزهر بالعودة إليه والاستفادة بما فيه من دفاع عن الإسلام على أساس عقلانى وعلمى ومستندا إلى الوقائع التاريخية دون حماسة أو بلاغة خطابية، ولذلك فإن الحجج التى تسوقها تصل إلى العقل وتقطع الطريق على من يوجه اتهامات ظالمة إلى الإسلام.

وهى تقول فى هذا الحديث: إن الكتابات الغربية فى الفترة ما بين ١٥٢٩ و١٦٨٣ تدل على أن وصول جيوش الأتراك إلى قلب أوربا وحصارهم فيينا عاصمة النمسا سبب صدمة شديدة للأوربيين، ومنذ ذلك الوقت سعى الغربيون إلى إلصاق كل الصفات السلبية والقبيحة بالمسلمين والأتراك،

وأحيانا يراودنى إحساس، وقد يكون هذا إحساسا شخصيا، بأن هذا الخوف الغريب من اقتحام الأتراك لفيينا ما زال مسيطرا على الألمان بطريقة لا شعورية، وأن ذلك يظهر بوضوح فى سلوكهم تجاه العمال الأتراك فى ألمانيا، وربما يكون الألمان أنفسهم لا يدركون هذه الحقيقة، ولكن هذا الحدث التاريخى المخيف بحصار فيينا ترك أثرا شديدا فى أعماق الأوربيين، وما زالوا يختزنون ذكريات هذه الأيام ويتوارثونها حتى يومنا هذا، حتى بعد أن اختلفت الظروف.. وزال دواعى الخوف.. وهذا شىء مؤسف حقا، لأننا يجب أن نضع فى اعتبارنا أن الأتراك المسلمين كانوا بعد ذلك من أقرب أصدقاء ألمانيا، وكان لفظ (ألمانى) يمثل بالنسبة للأتراك قيمة مهمة عزيزة عليهم، ولذلك يحزننى جدا أن أرى السلوك السلبى للألمان تجاه الأتراك، وكثيرا ما تحدثت مع عمال بسطاء منهم، فأجدهم فى غاية التأثر والشعور بالإحباط من المعاملة غير الطيبة التى يلاقونها من الشعب الألمانى وهو الشعب الذى يعتبر بالنسبة لهم الشعب المثالى.

وهل الإسلام دين الشهوات الحسية حتى إن وصف الجنة ذاته يجسد ذلك؟

تقول: إن هذا القول راجع إلى الترجمات الأوربية فى القرون الوسطى لبعض آيات القرآن التى تصف الجنة على أنها حديقة كبيرة، مملوءة بالحور العين، وأصناف المتع الحسية، وقد صدمت هذه الأوصاف الأوساط المسيحية المتمسكة بالتبتل والتطهر والروحانيات، كذلك صدم هذه الأوساط أن نبى الإسلام – صلى الله عليه وسلم – لم يكن عَزَبًا مثل المسيح، ولكنه مارس حياة زوجية طبيعية، وكان المتدينون من المسيحيين فى القرون الوسطى يعتبرون هذه الأمور مما لا يليق بالإنسان الكامل، المؤمن، المحب لله. وساهم ذلك المفهوم فى نشر صورة الإسلام الشهوانى فى القرون الوسطى، وما زالت هذه الصورة موجودة حتى عصرنا الحالى، ومنذ نشر ألف ليلة وليلة فى أول ترجمة فرنسية بقلم جالان gallan فى القرن الثامن عشر، التى ساهمت بما فيها من جو خيالى فى تأكيد صورة الإسلام الشهوانى فى الكتابات والفنون الغربية، وظهر ذلك فى الفنون التشكيلية فى القرن التاسع عشر وكيفية تصوير المرأة الشرقية والحريم وهكذا.. وهناك مراجع أوربية كثيرة عن الشرق فى الفنون الغربية أبرزت المناظر الجنسية الشهوانية وهى من خيال الرسامين الذين لم يذهبوا إلى الشرق على الإطلاق، ولكنهم استغلوا الشرق لكى يرسموا ما لم يكن مسموحا لهم بأن يعبروا عنه فى رسومهم عن البيئة الغربية. وما دامت هذه الصور عن الشرق فهى مباحة، وقد أدى ذلك إلى زيادة تأكيد صورة المسلمين على أن الشهوات الحسية هى التى تستغرق تفكيرهم فى الدنيا والآخرة.

والإساءة إلى الإسلام كانت شائعة فى القرون الوسطى ويظهر ذلك فى الشعر الفرنسى من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر، كما يظهر فى الأدب الإنجليزى والاسكتلندى، حتى إنهم حرفوا اسم النبى (محمد) إلى Mahaund وهو اسم يتكون من مقطعين، والمقطع الثانى haund

يعنى (كلب)، وفى نصوص أخرى نجد أن اسم النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - تحول إلى اسم معناه الشيطان، وحتى فى الأشعار الألمانية الرومانسية سنة ١٨٠١ نجد اسم محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد تحول إلى Mahom (ماحوم) وإشارات إلى أن المسلمين يعبدون أصناما ذهبية لمحمد - صلى الله عليه وسلم - .. وهكذا.. لا يوجد شىء سلبى لم يلصقه الغربيون بالإسلام، من القرن الثامن حتى القرن العاشر، وازدادت مع بداية الحروب الصليبية. وفى نوفمبر ١٩٩٥ تحدث الكتّاب الغربيون بفخر عن ذكرى مرور ٩٠٠ سنة على انطلاق أول حملة صليبية، مما يدل على أن تلك الحقبة مازالت حية فى عقول الغربيين!

❑❑❑

وهل الإسلام يحمل العداء للغرب ؟

تقول أنّا مارى شيمل: إن هذا صحيح جزئيا، لأن المسلمين عانوا طويلا من الاستعمار الغربى فى القرنين الماضيين، وقد أصاب المسلمين الفزع عندما جاء إليهم المبشرون الإنجليز وسعوا إلى تشكيكهم فى عقيدتهم الإسلامية، وأشعروهم بأنهم بشر من الدرجة الثانية، ومن السهل أن نلمس الإحساس بالاستياء والكراهية تجاه الاستعمار، وتجاه التبشير المسيحى لدى المسلمين فى الهند، وينطبق ذلك على بقية الشعوب الإسلامية أيضا. أما فى العصر الحديث فإن الخوف لدى المسلمين من التكنولوجيا الحديثة والتصنيع وأسلوب الحياة الأمريكية، وهو استياء موجه إلى الجوانب السلبية فى الحضارة الغربية، كما يراها المسلمون، مثل المبالغة فى التحديث، والإباحية الجنسية، والمبالغة فى فرض الفكر الغربى وأسلوب الحياة الغربية على المسلمين، كل ذلك يؤدى إلى ظهور أعراض الحساسية لديهم. ومع ذلك فإن من الخطر أن يمتد رفض المسلمين للمظاهر الخارجية السلبية للحضارة الغربية فيرفضوا أن يتعلموا من الغرب ما وصل إليه من مناهج البحث العلمى، والدقة العلمية، والتكنولوجيا الحديثة. وكثير من المصلحين الإسلاميين نبهوا إلى ذلك، مثل محمد إقبال فى باكستان، وقالوا إن من الممكن أن يظل المسلم مسلما وفى الوقت نفسه يأخذ من الغرب العلوم الحديثة والتكنولوجيا، وهذا موقف إيجابى، أفضل من الموقف الذى لا يرى فى الغرب سوى الجوانب السلبية فقط، وهذا هو ما يقود إلى الأحكام الخاطئة، والتصورات المشوهة عن الغرب، تماما مثل التصورات المشوهة عن الإسلام فى الغرب.. فالمشكلة على الجانبين سببها الجهل..

❑❑❑

وكيف فهمت أنّا مارى شيمل (الجهاد) فى الإسلام ؟

تقول: إن الذين يتحدثون عن الجهاد فى الإسلام على أنه الحرب المقدسة، يستخدمون اللفظ المسيحى المرتبط بالحروب الصليبية، وتعبير (الحرب المقدسة) ليس له علاقة بالإسلام، وترجمة الجهاد بهذا التعبير تضايقنى، ويحزننى أكثر أن بعض المسلمين أصبحوا هم أيضا يتحدثون عن

الحرب المقدسة، بينما الجهاد أصلا معناه بذل كل الطاقة، والتعب فى سبيل تحقيق هدف معين. والجهاد فى سبيل الله معناه الاجتهاد والعمل والجهاد لمرضاة الله، وقد يتضمن ذلك محاربة من يحاربون الإسلام والمسلمين.

وتقول: إن البعض يتحدث عن الإسلام وكأنه يوجد إسلام واحد، بينما الإسلام مثل المسيحية يشتمل على تيارات متباينة، وكما أن فى المسيحية اختلافات بين الكنيسة الأرثوذكسية الروسية والكنائس الأمريكية الحرة، فإن هناك اختلافات بين المسلمين باختلاف ثقافاتهم وإن كانوا جميعا يؤمنون بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله – صلى الله عليه وسلم –. فالأساس واحد، والفروع تتنوع بتنوع الشعوب والأجناس والثقافات..

❑❑❑

وهى تقول أيضا: إن ما يقال فى الغرب من أن الإسلام يعادى العلم ليس صحيحا، ولكنه ينطبق على العصور المتأخرة فقط، ما بعد سنة ١٢٥٨، بعد تدمير المغول لبغداد. وإسهامات العرب العلمية تُكذّب هذا الادعاء، فالعرب هم الذين وضعوا أسس العلوم الطبيعية فى أوربا، من خلال ما نقلوه عن اليونان فى العصور الوسطى من ناحية، وتطويرهم لهذه العلوم من ناحية أخرى. فما قدمه الرازى وابن سينا فى علوم الطب من إنجازات كان يدرس فى جامعات أوربا حتى عصر النهضة، وخاصة المؤلفات الخاصة بطب العيون، وكذلك المؤلفات الخاصة بالرياضيات، وعلم الفلك.

❑❑❑

ومن كتابات أنّا مارى شيمل نلمس أنها فهمت الإسلام فهما صحيحا، وقدمته للغرب بموضوعية ونزاهة علمية يجب أن تكون محلا لتقدير العالم الإسلامى، لأنه لم يظهر بين المسلمين من خاطب الغرب خمسين عاما فيما يشبه الجهاد، أو التجنيد لتوضيح حقائق الإسلام كما فعلت هى. وهى تنفى عن الإسلام الاتهامات الظالمة المتراكمة فى الغرب منذ قرون، وقدمت فى أكثر من ٨٠ كتابا جهدا علميا خارقا لتوضيح حقيقة العقيدة الإسلامية، بدراستها المتعمقة التحليلية المحايدة للقرآن، والفقه، والتاريخ الإسلامى، وتاريخ الأديان الأخرى، وبمعايشتها للإسلام فى مواطنه فى أنحاء العالم من تركيا وإيران إلى الهند وباكستان، وقد قرأت باللغة العربية التراث العظيم للعلوم والفلسفة والتصوف فى الحضارة الإسلامية فى مراحلها المختلفة، بما فيها من مراحل ازدهار، ومراحل انحطاط، ومن مراحل تقدم ومراحل تخلف، ووضعت يدها على الأسباب الحقيقية لتخلف المجتمعات الإسلامية بعد أن كانت للحضارة الإسلامية قيادة الحضارة العالمية.

تقول: إن الإسلام يقرر بوضوح حرية الإرادة للإنسان، ويقرر فى نفس الوقت مسئولية كل إنسان فى الدنيا والآخرة عن كل ما يفعل.. والله كرّم الإنسان كما جاء فى الآية (٧٠ من سورة

الإسراء) ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، وأعطاه الأمانة كما فى سورة (الأحزاب الآية ٧٢) ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾.

كما كانت تقول: إن إقبال كان نموذجا للمفكر الإسلامى الذى استطاع مخاطبة الناس بسهولة بالشعر الذى يسهل حفظه لدعوة المسلمين إلى العمل بدلا من مفهوم التوكل على أنه الاستسلام للكسل. كان إقبال يدعو إلى إسلام ديناميكى، إسلام يكلف الله فيه الإنسان بأن يعمر الأرض، ويأخذ بالعقل والتكنولوجيا ومعهما الإيمان، فالعلم والعمل والإيمان ثلاثية تمثل حقيقة الإسلام، وبتفاعلها معا يتقدم المجتمع الإسلامى نحو المستقبل.

وكانت تقول: إن الحب يجعلنى أرى بألم بالغ خطايا المحبوب، ونحن الذين قضينا حياتنا فى دراسة عالم الإسلام شديد التنوع، نحاول تقديم جوانبه الإيجابية إلى جمهور لا يكاد يعرف شيئا عن الإسلام وعالمه. ونحن نشعر بالصدمة عندما نرى التطورات التى حدثت فى العقود الأخيرة من القرن العشرين فى بعض أجزاء العالم الإسلامى، فإذا كانت التحية فى الإسلام هى (السلام) فإننا نرى ظهور اتجاه مخيف إلى التشدد والتضييق فى المواقف العقائدية والتشريعية فى الوقت الحاضر، وكان الاعتقاد فى البداية أن هذا الاتجاه لمقاومة التأثير الغربى المتزايد على العالم الإسلامى، ومن أجل تخليص الإسلام من التأثر بعوامل أجنبية، لكن المسألة لا تبدو كذلك، فإن الذين يجب عليهم اتباع الطريق الذى رسمه النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - لا يفعلون ذلك، ولا يتبعون تعاليمه اتباعا صحيحا، فنحن نواجه تعبيرا عن سياسة القوة، وأيديولوجيات تتخذ الإسلام شعارا لها، بالرغم من أنها تنطوى على أفكار ودعوات ليس لها أساس صحيح فى الإسلام، وفى أصول العقيدة الإسلامية. فإننى- مع طول دراستى للإسلام - لم أجد فى القرآن، أو فى الحديث، أية دعوة إلى الإرهاب، أو احتجاز الرهائن، ولم أجد ما يشير ولو إشارة إلى مجرد السماح أو القبول بمثل هذه الأفعال، ووجدت دائما تجسيدا للقاعدة الذهبية التى تقول: (عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به) ووجدت أن هذه القاعدة الذهبية ركن مهم فى علم الأخلاق الإسلامى، فليس هناك إنسان عاقل يمكن أن يؤيد أعمال الإرهاب، فى أى مكان على الأرض، وأيا كانت عقيدة مرتكبيها، وسوف نكون - نحن المستشرقين - أكثر الناس سعادة حين تلغى أحكام الإعدام، وتلغى أيضا أحكام السجن على أصحاب الآراء المخالفة والناقدة، ولكن يبدو أن كثيرين من الأصوليين المتطرفين ينسون أن القرآن نبّه إلى أنه (لا إكراه فى الدين) فى سورة البقرة (آية ٢٥٦) وأن النبى - صلى الله عليه وسلم - حذّر من الحكم بالكفر على أحد من الناس، وشدد فى التحذير من أن يُكفّر الناس بعضهم بعضا.. ويحاول الأصوليون المتطرفون أن يجذبوا أنصارا لهم من بين الشباب الحائر الذى يعانى من البطالة، وأن يعملوا على تعبئة مشاعرهم ببعض الشعارات والتعبيرات. بعضها كلمات حق يراد بها باطل وأكثرها ليس من الإسلام أصلا. والإسلام بذلك يتعرض لإساءة استخدامه لتحقيق أهداف سياسية تختلف عن الأهداف الحقيقية

للإسلام الصحيح.. هؤلاء الأصوليون المتطرفون يقدمون الإسلام فى صورة كاريكاتورية كما قال الطاهر بن جلون، ويساندون مذهبا سياسيا لم يسبق أن كان له وجود من قبل فى العالم العربى الإسلامى.

❑❑❑

على الجانب الآخر تنبه أنّا مارى شيمل إلى أن صورة الغرب أيضا مشوهة فى الإعلام فى معظم البلاد الإسلامية، ولذلك فإن التفاهم من الجانبين، وتوضيح الأمور من أهم الواجبات الآن. وتقول إن الغريب أن معرفة المسلمين أنفسهم بتاريخهم محدودة، وما حققوه من منجزات فى مناطق عديدة من العالم الإسلامى مجهولة بالنسبة لهم، والمتعلمون الليبراليون أيضا معرفتهم محدودة بما تحقق فى أنحاء مختلفة من العالم على يد المسلمين، ولذلك فإنهم يحتاجون إلى من يذكرهم بأسلوب هادئ بالتقاليد العظيمة لحضارتهم التى يبدو أنها أصبحت حضارة منسية حتى بالنسبة للمسلمين.. هذه الحضارة العظيمة تم تجميدها وإبعادها عن التطور عدة قرون، مع أن هذه الحضارة الإسلامية إذا تحقق لها البعث بثورة صحيحة، وإذا آمن أصحابها بأنها قابلة لمسايرة تطورات العصر، فإنها ستكون هى الطريق إلى مستقبل جديد للعالم الإسلامى.

وتقول: إن المسلمين يحتاجون إلى الأسلوب الهادئ لتصحيح المفاهيم المشوهة، ولا يحتاجون إلى القسوة التى قد تثير فيهم ردود فعل سلبية، وقد تذكرهم (بالاستعمار الثقافى).

وتقول لتأكيد احترام المسلمين للمرأة: لقد دعتنى كلية الشريعة بجامعة أنقرة لشغل كرسى الأستاذية لتاريخ الأديان فيها، ولتدريس تاريخ الكنيسة، وتاريخ العقائد، وكنت فى ذلك الوقت سيدة شابة غير مسلمة، فى حين لم يكن فى أية جامعة ألمانية كرسى أستاذية تشغله سيدة، ونحن – فى الغرب – ننسى الأهمية التى يوليها القرآن لكل من المسيح (روح الله)، وأمه العذراء، والمسلمون يحملون لهما الاحترام والتبجيل.

والإسلام – كما تقول – دين السلام. والسلام هو عملية النمو الحيوى التى يجب أن يؤمن بها كل إنسان، ولذلك نجد أن (الجهاد) عند المتصوفين المسلمين هو جهاد النفس وتطهيرها من صفاتها السيئة. وجهاد النفس هو الطريق للوصول إلى الله، فإذا نجح إنسان فى الوصول إلى (السلام) داخل نفسه، فإنه يصبح قادرا على تحقيق السلام فى العالم.

❑❑❑

وتقول أنّا مارى شيمل: ربما يرى البعض أن الصورة التى أرسمها للإسلام صورة مثالية بعيدة عن الواقعية السياسية، غير أننى تعلمت، وأنا باحثة فى الأديان أن المقارنة ينبغى أن تكون بين النظائر، أى بين المثالية والمثالية، ولا تكون المقارنة مع الصورة المشوهة الناشئة عن الضعف البشرى والانحراف. وأن معرفتى للإسلام مستمدة من البحث عشرات السنين فى الآداب والفنون الإسلامية،

ومن معاشرة الأصدقاء المسلمين من طبقات الشعب فى جميع أنحاء العالم الذين استقبلونى فى بيوتهم بود بالغ، وساعدونى على معرفة حضارتهم معرفة دقيقة، وإذا أردتم نموذجا للتسامح الإسلامى فتذكروا السيدة التركية (مولودة جنتش) التى تعيش فى (سولينجن) بألمانيا، فقد أعلنت عفوها عمن قتل أسرتها، هذا العفو هو روح الإسلام. وإن تقبل الطرف الآخر هو الأساس لكل حوار، وينطبق ذلك على علاقة الغرب بالعالم الإسلامى، خاصة أن الإسلام أصبح يصور على أنه العدو الجديد للغرب - نظرية صمويل هنتنجتون - بعد انتهاء المواجهة بين الكتلتين الغربية والشرقية، وإننى على يقين بأن الشعوب يمكنها أن تتحاور على أساس احترام كل طرف للطرف الآخر دون أن يعنى ذلك ضرورة إزالة الخلافات بينهما، بل السعى إلى تجاوز هذه الخلافات هو الأهم.

وأجمل ما قالته أنّا مارى شيمل: إن وسيلتها للحديث عن الإسلام ليست بإصدار البيانات، أو بالظهور المسرحى، ولكنها تؤمن بأن المياه التى تسير سيرا هادئا وباستمرار قادرة مع الزمن على أن تذيب الحجر الصلب.

وكانت تحب أن تكرر أبياتا من شعر إقبال تقول: لله الشرق، ولله الغرب، والشمال والجنوب. السلام فى راحتيه.. وهو الوحيد العادل.. ويريد العدل للجميع.. فلتبارك من أسمائه الحسنى اسم السلام.

❑❑❑

كانت أنّا مارى شيمل مهتمة بالدفاع عن التصوف الإسلامى المعتدل، ولها دراسات ومحاضرات كثيرة للتعريف بالتصوف، والصوفية، وقد ترجم الأستاذ ثابت عيد مقالاً لها عن التصوف نشرته فى مجلة du السويسرية فى صيف عام ١٩٩٤.

وقال ثابت عيد فى تعليقه على المقال: إن شيمل تختلف فى معالجتها للإسلام عامة، وللتصوف خاصة، عن الغالبية العظمى من المستشرقين، لأن ما يربطها بالإسلام صلة حب، أما الغالبية العظمى من المستشرقين فيربطهم بالإسلام علاقة عنصرية استعمارية. والحب نور يكشف المحاسن والإيجابيات، بينما العنصرية لا تبحث إلا عن العيوب والمساوئ، ولا ترى - بل لا تريد أن ترى - المحاسن والإيجابيات.

وأشهر من تخصص فى دراسة التصوف الإسلامى من المستشرقين هم: السويسرى فريتز ماير، والفرنسيان هنرى كوربان، ولويس ماسينيون، والبريطانى نيكلسون. ولم تكن رؤيتهم للتصوف الإسلامى موضوعية، حتى إن هنرى كوربان رأى أن التصوف الإسلامى ليس سوى عودة إلى عقيدة التثليث المسيحية، ورأى ماسينيون أن التصوف الإسلامى نتاج الفلسفات الفارسية ولم يكن نتاج العقلية العربية. أما انّا شيمل فترى أن التصوف الإسلامى نابع من روح إسلامية، ومن البيئة

العربيـة الإسـلامية التى تفاعلت مـع حضارات وثقافات الشـرق والغرب دون اسـتعلاء أو نفور. وخلاصـة الصوفيـة، أنها الفناء فى الله. والغربيون يصورون المتصوفين المسـلمين فى صور غريبة، فيصـورون الصوفى مـرة فى صورة فقير يأتى بكرامات عجيبة، أو درويش جوّال، أو أشـعث أغبر كما فى ألف ليلة، أو فى صورة مجذوب يدور حول نفسـه ويطوح رأسـه وذراعيه. بينما التصوف الحقيقى حركة روحية ظهرت فى أرض إسـلامية، واشـتق الاسـم من رداء الصوف المتواضع الذى كان يرتديـه الصوفى علامة على الزهـد فى زخرفة الدنيا، والبعد عن المباهاة بالمظهر، والتمسـك بجوهر: المبادئ الأخلاقية التى جاءت فى القرآن والأحاديث، والاسـتعداد فى كل لحظة للقاء الله والحسـاب على كل ما فعلوه فى دنياهم. والقرآن هو عالمهم الخاص الذى يعيشـون فيه ويستلهمون منه معتقداتهم، وكانت رابعة العدوية (المتوفية سـنة ٨٠١م) هى التى أدخلت فكرة الحب الإلهى الطاهر فى الفكر الصوفى، وأرست مبدأ الصلة بالله على أساس الحب وليس أملا فى ثوابه أو خوفا من عقابه، وصار الحب بعدها من أساسيات الفكر الصوفى. وصارت المجاهدة الدائمة للنفس الأمارة بالسوء هى الجهاد الأكبر، والوسيلة لذلك ذكر الله دائما وفى كل حين. وشيخ الطريقة الصوفية هو المرشد الروحى، والخلوة هى الوسيلة لصفاء النفس وتخلصها من الأفكار الشريرة، وقد لعبت الطرق الصوفية دورا هاما فى نشر الإسلام فى مناطق عديدة مثل الهند وأفريقيا، حيث كان الصوفية يدعون إلى المبادئ البسيطة للإسلام وإلى حب الله ورسوله دون التطرق إلى مسائل دينية معقدة أو الخوض فى مشـاكل فقهية دقيقة. ومع انتشار الإسلام دخل فيه أهل ثقافات متعددة تأثروا بالإسلام وأثروا فـى الفكر الإسـلامى وفى التصوف، وبذلك ظهر النظام الهرمى المعقـد للجماعات الصوفية، وظهر تقديـس الأولياء والتعلق بالأضرحة وغير ذلك من عادات غير إسـلامية وافـدة من ثقافات أخرى. وظهر بعد ذلك صوفية الحب، كما ظهرت فكرة المعراج الصوفى أو الطريق إلى الصفاء.

واهتمت انّا مارى شـميل بدراسـة شـخصيات المتصوفة الكبار أمثال رابعـة العدوية، والحلاج شـهيد الحب الإلهـى، وابن عربى صاحب نظرية وحـدة الوجود التى أثرت فـى حركة التصوف فى الغرب، وسـنائى الغزنـوى، وفريد الدين العطار، وجلال الدين الرومى. كما اهتمت بدراسـة أثـر الفكر الصوفى فى الثقافة الإسـلامية وخاصة فى تركيا، والهنـد، وإيران، وعلى رغم ما لحق بالتصوف من بدع ومنكرات إلا أن التصوف الحقيقى النقى – فى رأى أنّا مارى شـيمل – أسـهم فى تعميق الرسـالة الأساسية للإسـلام وهى عبادة الله الواحد الأحد. أسهم منشدو الصوفية فى تطوير اللغات الشعبية فى أندونيسيا وغرب أفريقيا، وغرسوا قواعد السلوك والأخلاق الإسلامية الصحيحة فى مناطق واسعة.

وقد تركت المستشـرقة العظيمة عشـرات الكتـب والأبحاث، كما تركت مئـات من تلاميذها فـى ألمانيـا وغيرها من الدول التـى كانت تحاضر فى جامعاتها. وقامت بما لم تقم به المؤسـسـات

الإسـلامية للدفاع عن الإسـلام وإظهار ما فيه من قيم أخلاقية وإنسـانية وروحية تجعله جديرا باحترام الغرب.

❑❑❑

هذه هى المستشـرقة العظيمة التى عرفت الإسلام حق المعرفة، وتفرغت لدراسته أكثر من ستين عاما، وعبّرت عن احترامها للعقيدة والمبادئ الإسلامية، وعن حبها للمسلمين، واستطاعت التفرقة بـين المسـلمين والجماعة محدودة العـدد من المتطرفـين والإرهابيين الذين لا يعبّـرون عن حقيقة الإسـلام.. وهى بحق - كما قيل عنها - دائرة معارف، عاشـقة لعلمها، ويصعب إحصاء مؤلفاتها باللغات الألمانية، والإنجليزية، والتركية..

وبعد لقاءات متعددة معها وأحاديث طويلة وصريحة أحسستُ أن روحها تحلق مع القيم السامية للإسـلام، ولمستُ أن روح التصـوف تمكنـت منها فأصبحـت هى أيضا من كبـار المتصوفة، بعد أن تعمقت فى دراسـة التصوف الإسـلامى فى مختلف البلاد والعصور الإسـلامية، وعايشت الحلاج، وابـن عربى، ورابعة العدوية، وإقبال، وجلال الدين الرومى، والمثنوى، وغيرهم، وغيرهم، حتى أصبح التصوف رسـالتها فى الحياة. ورأت أنه ركن أساسـى فى التدين الإسلامى لأنه الحب بمعناه الواسـع.. حب الله.. وحب الناس.. وحب الطبيعة.. وحب الأشـياء.. وحب الحيوان.. وحب كل مـا خلق الله.. فكل ما فى الكون تجليات القدرة الإلهية.. وعبّرت عن ذلك بقولها: إن التصوف هو لب الدين الإسلامى وهو إطار الإسلام كذلك.

وحين سـئلت: إذا كنت تحبين الإسـلام كل هذا الحب فلماذا لم تعتنقى الإسـلام؟ أجابت: هذا سؤال محرج، لا أعرف كيف أجيب عنه.

وحين سئلت: إذن فما ديانتك؟ قالت: الله أعلم!

إننى شخصيا أقرأ الفاتحة على روحها كثيرا وأدعو لها جزاء ما قدمت للإسلام.